كلمة الدكتور مروان المحاسني في افتتاح المؤتمر السابع لمجمع اللغة العربية في ٢٠٠٨/١١/١٨م
في قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد الوطنية

أيها السيدات والسادة

لقد اعتدتم الحضور إلى هذه القاعة للمشاركة في افتتاح المؤتمرات السنوية التي يقيمها مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد تابع بعضكم البحوث التي تلقى في قاعة المجمع والتي يشارك فيها عدد كبير من أعلام متميزين من البلاد العربية الأخرى إلى جانب أعلام من مجمعنا.

إن معظم البحوث التي ألقيت في المؤتمرات السابقة قد تناولت جوانبَ هامةً من المشكلات التي تواجه اللغة العربية في عالم تسيطر عليه ثقافة تسعى إلى العالمية لتصل إلى العولمة، أي إلى طبع جميع ثقافات المعمورة برموز ثقافتها المسيطرة على القوى المالية والصناعية في عالم اليوم.

هذا ما جعلنا ننظر في مؤتمراتنا السابقة في قضايا محددةٍ تنصبُّ في خدمة اللغة العربية وحمايتها من المخاطر المتعاظمة يوماً بعد يوم، إذ من واجبنا أن نتصدى لمن يروجون أن اللغة العربية لغةٌ صعبةٌ معقدةٌ لا يملكها سوى بعض المتخصصين في علومها.

لذا كان مسعانا الأساس إيجادَ طرق تربوية حديثة قادرة على إيصال الفصحى إلى عمق أذهان أبنائنا، قبل أن تسيطرَ اللغة الدارجة على ألسنتهم وتبعدَهم عن جماليات لغتهم التي تحمل إرثاً ثقافياً لا يضاهيه إرثُ أي لغة أخرى.

وهذا ما جعلنا نخصص مؤتمرنا السادس في "تأثير الواقع المعاصر على لغة الطفل" في محاولة لجعل لغةَ مخاطبة الأطفال متسايقةً مع استعدادهم الفطري ومن ثَمّ تشجيعُ إصدار أدبيات مناسبة تحبّب إليهم لغتهم.

كما توجهنا في مؤتمرنا الخامس إلى دراسة ملحة تتناول اللغة العربية في عصر المعلوماتية، لتوضيح ما للحاسوب من تأثير حقيقي في اللغة التي عليها أن تتعهد تأمينَ ما يحتاج إليه من مصطلحات لازمة لتشغيله، والاستفادةَ من الآفاق المعرفية التي يفتحها، آملين أن نُدخل معظم مؤلفاتنا التراثية في ذلك النطاق العالمي الجديد، الذي تمثله الشابكة، بما يسهّل على الباحثين الوصول إلى كنوز تراثنا.

لن أدخل في تفصيل دقائق ما دار من بحوث في مؤتمراتنا السابقة، ولكنه لابد لي من الإشارة إلى أن الدافع وراء هذه المؤتمرات كان دوماً شعورُنا بأن لغتَنا العربية مهددةً من قبل أعدائها، وأحياناً من قبل أبنائها.

أيها السيدات والسادة

لكم أن تتساءلوا عن حصيلة هذه المؤتمرات وعما آلت إليه قراراتها وتوصياتها.وهنا يؤلمني أن أصارحكم بأن رجاءنا في أن تعم الفائدة من تلك البحوث قد خاب بتأثير ما تعرفونه من انقسام بغيض يسيطر على أمتنا العربية. فما زالت مراكزُ متعددةٌ تطلق في التداول العربي ألفاظاً تهم الحياة العامة، دون أن يتم إنضاجها بالتشاور بين المراكز والمجامع من حيث مناسبتها للمقابلات الأجنبية. وكذلك فإن القرارات التي تصدرها المجامع المختلفة لم تجد طريقَها إلى التوحيد باعتماد منهجية مشتركة يتولى اتحاد المجامع تطبيقَها.

ولاشك بأن ما يزيد الطين بلّة تلك الحريات المفرطة التي يمارسها كثير من الكتاب ومن الصحفيين في عالمنا العربي، بأن يأخذوا الألفاظ الأجنبية كما هي ويرسموها بحروف عربية معتبرين أن ذلك يكفي لاعتمادها على عُجمتها كالبطارية والسوبرماركات والمولات والأجندة والكوافير وغيرها كثير.

ولابد من الاعتراف بأن مجامع اللغة العربية مقصرة في هذا المضمار إذ إنها أخفقت في إيجاد المراصد اللغوية التي تتولى الرقابة على ما يطرح في التداول من كلمات ومصطلحات جديدة وتسجيلها فور ظهورها لإطلاق الدراسات العاجلة الهادفة إلى إيجاد المقابلات لها قبل شيوعها وتكريسها في الاستعمال اليومي.

إلا أن ما هو قائم من استسهالٍ غير مسؤول ينخُر في حقيقة اللغة أداةً للتعبير، إذ ينتهي الأمر إلى ظهور لغة هجينة تركيبها عربي ومفرداتها أعجمية، وهي ترسّخ استلاباً ثقافياً لا حدود له يهدد الأجيال الصاعدة.

وهذا في عصر نرى فيه الدول الأخرى تتمسك بلغاتها إلى حدِّ أن الخلافات الطفيفة بين بعض الألفاظ الإنكليزية الأمريكية والإنكليزية البريطانية أصبحت مجالاً للتشدد والتمييز. كما أن السلطات الفرنسية قد أصدرت تعليماتٍ تحظر فيها إدخال الألفاظ الإنكليزية إلى اللغة الفرنسية إلا بعد اعتمادها من الأكاديمية الفرنسية، التي تعتبر حارساً متيقظاً لحماية اللغة الوطنية.

ليس هنا مجال التطرق إلى ما تحدثه موجةُ الإعلانات التجارية من أثرٍ حين نراها تزدري بلغتنا الأم، لتعتمد في تسويق تجاراتها لغةً لا تقبلون أن تسمى عربيةً إذ إن معظمها مؤلف من تراكيبَ عاميةٍ تُرصِّعها الأسماء الأجنبية الرنانة، وهم يشفقون على لغتنا العربية فيتكرمون عليها بكتابتها بحروف صغيرة إلى جانب الحروف الأجنبية الطاغية.

لقد عالجنا تلك الظاهرة في مؤتمرنا الرابع تحت عنوان اللغة العربية والمجتمع لنبيّن عمقَ تأثير هذا المسلك على الأجيال الصاعدة من أمتنا، وهي تحتاج إلى المراسي التي تربطها بهويتها وتؤكد لها أصالتها الثقافية والحضارية.

ومن جهة أخرى فلابد من القول بأن في مقدمة الوسائل للحيلولة دون تهميش اللغة العربية في عالم اليوم إيجادُ المصطلحات التي تسمح بنقل العلوم العالمية إلى اللغة العربية، لنعيد صلةً فقدناها مع عوالم العلوم المختلفة، بما يسمح لنا بالإفادة منها ومن ثَمّ التدرجَ في مشاركةٍ فعالة في إنتاجها وتطويرها.

ولذا ترون المجمع اليوم منغمساً في عمل شاق يتطلب الكثير من الأناة والكثير من الإخلاص لإيجاد تلك المصطلحات.

فحقيقة الأمر أن سورية مازالت رائدةَ حركةِ التعريب في العالم العربي، ولنا أن نفخر بدولتنا التي لم تقبل، رغم الضغوط المختلفة، أن تَحيد عن تصميمها على إبقاء التدريس باللغة العربية في جميع مراحله. وهذا ما جعل معاهدنا العلمية تنتج كماً ضخماً من المصطلحات في مختلف العلوم الحديثة.

إلا أن مجمعنا قد رأى أن من واجبه التصدي لتوحيد ما هو قيد الاستعمال من المصطلحات في جامعاتنا، نظراً لما طرأ عليها من تفاوت مردُّه إلى تنّوع الخلفيات الثقافية لأبنائنا القائمين على التدريس. فإنهم يسارعون إلى إقرار المصطلحات التي تتطلبها العلوم الحديثة السريعة التطور، دون التشاور مع مرجعية علمية تستطيع ترجيح بعض المصطلحات على مصطلحات أخرى.

وهكذا وتنفيذاً لمقترحات المؤتمر الثالث المهتم بقضايا المصطلح العلمي تشكلت لجان مجمعية انضم إليها أساتذة متخصصون في الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والنبات والحيوان

والزراعة يحاولون الوصول إلى اختيار الأفضل من المصطلحات ليتم إقرارها من قبيل مجلس المجمع لتصبح مصطلحاتٍ معتَمدةً في جميع الجامعات السورية.

أيها السيدات والسادة

لقد دعاكم مجمع اللغة العربية إلى هذا المؤتمر بعنوان التجديد اللغوي، ولابد من سائل يعجب من هذا العنوان قائلاً: وهل يمكن تجديد لغة عريقة كلغتنا، التي اجتازت تلك القرون العديدة حاملةً تراثاً مازال مجالاً لإعجاب الدارسين؟

فكلنا يعرف أن اللغات تتجدد بشكل تلقائي، متأثرةً بالتيارات الفكرية الوافدة التي يسعى الأفراد إلى إدراك مقوّماتها فيضعون في لغتهم المقابلات لألفاظها، ويستقصون ما وراءها من فكر جديد يمثّل إضافةً حضاريةً لحضارتهم.

كما أنها تتجدد بتأثير واقع المثاقفة وهو تبادل ثقافي قد ترجح فيه كِفّة أحد الطرفين فيفيد الآخرُ من المعطيات الجديدة ويصوغ لها الألفاظ المناسبة. هذا ما كان يجري على مرّ التاريخ وقد سبق للثقافة العربية الإسلامية أن جادت بألفاظ علمية عديدة على اللغات الأوربية فأين موقعنا اليوم في عالم اختُصرت أبعاده وهيمنت عليه المنابع الإعلامية الثرّة، التي تنقل إلى جميع بقاع العالم ما يجري في البقاع الأخرى، فهل لنا من كِفَّة راجحة في هذا المضمار؟

إذن كيف يكون تجديد اللغة كمفهوم فاعل ينتهي إلى توجيه استعمالها وجهةً جديدة تتطابق مع مقتضيات العصر؟

إن اللغة السليمة التي نسميها الفصيحة لم تعد سليقةً يتمتع بها أطفالنا وشبابنا، فقد غلبت عليهم العامية لسهولتها وقلّةِ ما تفرضه من قواعدَ على الناطقين بها.

وقد تراءى لنا بعد تحليل الوسائل الموصلة إلى تجديد لغوي يعيد الثقافة العربية إلى لب الثقافة العالمية، ويوثّق ارتباط لغتنا بالتيارات الفكرية المعبرة عن تساؤلات العصر في ميادين الحداثة، أن نقطة الانطلاق في هذا التجديد لا يمكن أن تبدأ إلا من تشرّب اللغة الأم بالاعتماد على أساليبَ ناجعةٍ تقرّب أطفالنا من لغتهم وتجعلها مستبطَنةً في أذهانهم لتكون الأداة المثالية للتعبير عن مكنونهم.

لذلك واستناداً إلى خبرات ممتدة على سنوات عديدة قبلنا في برنامج المؤتمر بحثاً ناقداً يوضّح العثرات التي يجب التغلب عليها في مجالَي تعليم اللغة وتعلمها حتى يمكن الوصول إلى بناء المناهج اللغوية الحديثة الهادفة إلى تسهيل عملية التعلم.

ومن البحوث الهامة ما يتطرق إلى تسهيل فهم قواعد النحو بصورة عصرية، بعيدة عن الحفظ الببغاوي الذي اعتدناه في طفولتنا. ولا يكون ذلك إلا بتوضيح الأسس المنطقية للعلائق النحوية دون الإخلال بنظام لغتنا العريقة.

وأما تجديد البلاغة، وهي الشغل الشاغل لكل كاتب ومتكلم، فهناك ضرورة ماسّة لإبعاد مفهوم البلاغة عن ممارسات التقعّر في التراكيب وفي انتقاء الألفاظ، إذ لا بلاغة إن لم تكن مبنيةً على السلاسة، وعلى الجرس الجميل الذي يعطي للغة ألقها، وعلى التسلسل الفكري الذي يتميز به البيان.

وما دامت المعجمات سنداً وركيزة لتوضيح المعاني والوصول إلى الدقة في التعبير فإن الدراسات التي تعتمد الأسس الحاسوبية في صناعة المعجم سوف توصلنا إلى حسن الإفادة من التقانات الحديثة وتجعل من الرجوع إلى المعاجم متعةً حقيقية.

وقد خُصِّص بحثٌ هام لمشروع صنع معجمٍ يتولى التحقيق في فصاح اللغة العامية، للإفادة من ألفاظ هي فصيحة في حقيقتها ولكنها اتُّهمت بأنها دخيلةٌ ومرتجلةٌ حين استعملتها العامة.

وكان لابد في هذا المؤتمر من التوجّه بكل إعجابٍ وإكبار إلى أولئك المخلصين في تاريخنا الثقافي الذين سبقونا في ميادين تجديد اللغة، باذلين جهوداً كبيرة في مفهومهم للتجديد اللغوي. ويكفي أن نذكر أبا بكر الزبيدي الأشبيلي ومجمعيّيَن من أسلافنا هما الشيخ عبد القادر المغربي ويوسف الصيداوي وقد سبقونا إلى بذل الجهود من أجل تجديد اللغة وتسهيل تعلمها وجعلها أداة دقيقة وسهلة المنال لإيصال المعرفة.

إن الغاية الأساسية من مؤتمرات المجمع هي الانفتاح على المثقفين في بلاد العرب لاستنهاض هممهم في مشروع قومي هادف إلى تضافر الجهود لإيصال اللغة العربية إلى المكانة التي يستحقها ماضيها، ذلك الماضي الحافل بالإشعاع على عالم لم يهتدِ إلى الفكر

العلمي الحقيقي المبني على الشك والتجريب والاستقراء قبل كتب ابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان.

ويتميز مؤتمرنا السابع بأننا قد أضفنا إلى البحوث الهامة التي يتضمنها برنامجنا جلساتٍ خاصةً كل يوم في الجلسات الصباحية يقوم فيها ممثلو المجامع العربية الأخرى بمشاركتنا في إقرار نهائي للمصطلحات التي أنتجتها لجان المجمع في العلوم الأساسية والعلوم الطبيعية وألفاظ الحضارة الحديثة.

وإن هذا المؤتمر الذي يستعرض الوسائل والطرائق الموصلة إلى تجديد اللغة إنما يمثل خطوة صغيرة يجب أن تتلوها خطوات على طريق تثبيت العربية في وجدان شبابنا، وإضافة مرونة على مرونتها، ومطاوعة على مطاوعتها، بقصد استيعاب العلوم الحديثة.

ولاشك بأن استيعاب العلوم هو الشرط الأساس للتمكن من المشاركة في تطور العلم العالمي والإفادة من التقانات الحديثة، وهو الذي يبعد عن العرب مهانة التبعية في كل ما يطرأ على العالم من تغيرات.